تمهيـــــد

الأجواء العامّة في القرن السادس

بشكل عام، يُعتبر القــرن السادس، قرن الحوادث العظام التي غيّرت ملامـح الدولـة الاسلامية؛ فهو مقتـرن بالحروب الصليبية، وغارات التتار، وزوال الدولة الفاطميـــــة، و اضمحــلال دولة المسلمين بالأندلس، وقيـام دولة الأيوبيين في مصر و الشام.

أمّا بالنسبة إلى الحروب الصليبية، فيمكن القول بأنّ القرن السادس و أواخر القـــرن الخامس كان عصر الجزر الاسلامي العربي، والمدّ الصليبي في منطقة الشرق الأوسط فــي مصــر و الشام و العراق، و يرجع هذا الجزر إلى عدّة عوامل كلها تمثّل الضعف و التفكك و الخلاف في الصف الإسلامي.

بما أنّ الحروب الصليبية لها أهمية في حياة أسامة و تكوين شخصيته، نستعرضها هنا استعراضاً عاجلاً.

الحروب الصليبيـــــة:

اتّفق معظم الباحثين على تعريف الحروب الصليبية[1]، بأنّها « حركة نبعت من الغــرب الأوروبي المسيحي في العصور الوسطى، و اتّخذت شكل هجوم حربي استعماري على بـلاد المسلمين، و بخاصة في الشرق الأدنى بقصد امتلاكها، وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية و الاجتماعية و الاقتصادية و الدينية التي سادت غرب أوروبا في القـرن الحــادي عشر، و اتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين شعاراً دينياً للتعبير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق»[2]

إنّ الأسباب التي حملت الغرب الأوروبي على هذه الحروب – و إن اختلف المؤرخون في تفسيرها – تعود إلى غرضين أساسيين:

١) ضغينة الغرب الأوروبي ضد العالم الاسلامي، فكانت الحرب ردّ فعل لهم.

---

[1]- لمزيد من الاطلاع على الحروب الصليبية و تاريخها راجع: الحروب الصليبية في المشرق و المغرب لمحمد العروسي المطوي، تاريخ الحروب الصليبية لمحمد سعيد عمران، الحركة الصليبية لسعيد عبد الفتاح عاشور، الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية لبسّام العسلي، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (العصر الفاطمي و السلجوقي و الزنكي) لفايد حمّاد عاشور...

[2]- عبد الفتاح عاشور (١٩٧٥): **الحركة الصليبية**، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٦/١.

٢) دافع الطمع و الكسب بمختلف أشكاله و تنوّع صوره.

الغزو الصليبي و أثره في نفوس العرب و المسلمين:

بدأت الحروب الصليبية في أواخر القرن الخامس الهجري، و تمكنت حملتهم الأولى بقيادة **بلدوين** من هزيمة السلاجقة و الاستيلاء على مدينة الرها و تكوين إمارتهم الأولى بها، وتولّى عرشها بلدوين نفسه، وكان ذلك سنة ١٠٩٨م. و كان أكثر سكانها من الأرمن و النصارى، و توغلت جماعة منهم جنوباً بقيادة **بوهمند،** فاستولت على أنطاكية وأسست بها الإمارة الثانية و تولاها بوهمند. و قاد **ريموند ده تولوز** الفرنسي حملة على بعض مدن الشام و واصل عشرون ألفاً منهم التقدّم نحو بيت المقدس فاستولوا عليه و أعملوا في سكانه السيف، و ارتكبوا كثيراً من الفظائع ممّا كان له أعمق الأثر في نفوس المسلمين و العرب.[1] و نظراً لأهميّة سقوط بيت المقدس في تحوّل مجرى الحوادث، و في يقظة الروح القوميّة عند المسلمين و العرب سنستطرد في وصف تلك الموقعة.

كانت المدينة في أيدي الفاطميين، و حاصرها الصليبيون، وقاوم حماتها شهراً كاملاً، و ضغط المحاصرون بشدّة، و هدموا الأسوار، فاضطر المدافعون إلى التسليم تحت ضغط الحصار و انقطاع المدد، و اندفع الغزاة يهيج رؤوسهم الغيظ و تضطرب نفوسهم بالحقد، و تلعب بعقولهم نشوة الانتصار، فذبحوا كل من لقوه من المسلمين نساءً و أطفالاً و شيوخاً، فضلاً عن المحاربين.

قال ابن الأثير في وصف هذه المذبحة:« و قتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمّةالمسلمين و علمائهم و عبادهم و زهادهم، ممن فارق الأوطان، و جاور بذلك الموضع الشريف»[2]

وتوالت انكسارات المسلمين أمام جيوش الصليبيين، فبعد معركة بيت المقدس دارت معارك أخرى على الشواطىء الشامية، و استولى الغزاة على مدن الساحل و لم يبق لمصر غير عسقلان و غزة في الجنوب، و كان ذلك بفضل الأسطول المصري و بعض الوزراء المصريين كالجمالي، و اليازوري و ابن رزّيك.[3]

[1]- زغلول سلام(٢٠٠٨): **الأدب في العصر الأيوبي،** الإسكندرية: منشأة المعارف،٢٤/١و مابعدها.

[2]- ابن الأثير(١٩٦٦): **الكامل في التاريخ،** بيروت: دارصادر-داربيروت، ٢٨٣/١٠.

[3]- زغلول سلام(٢٠٠٨)،٢٦/١.

و أصبحت إمارة بيت المقدس أهمّ الإمارات اللاتينية بالشام، وكانت الإمارات الثلاث الأخرى تخضع لأميرها. وقد امتدّت هذه الإمارة فأصبحت حدودها من العقبة على البحـر الأحمر إلى البيروت، و من البحر المتوسط إلى نهر الأردن.

و هكذا سيطر الصليبيون على الشام، و خاصّة الجزء الساحلي من آسيا الصغرى إلى خليج العقبة، و بذلك تحكّموا في منافذ العالم الإسلامي إلى المغرب. فازداد خطرهم في بلاد الشام، و كثر استهتارهم بالمسلمين، الشيء الذي جعل المسلمين يدخلون في مرحلة جديدة و هي مرحلة « شعورهم بالحسرة على تفلت أجزاء من العالم الإسلامي من أيديهم، و بتلك الهزائم المتلاحقة التي نزلت بهم، و تلك المجازر الدامية التي كانت تطيح برؤوس المسلمين، و بأولئك الشراذم الوافدين من كل بلد يستبيحون الأقوات و الحرمات بلا رادع أو وازع، و يستهينون بالمقدّسات الدينية، و يحوّلون المساجد إلى كنائس و صوامع». [1]

فالعالم الإسلامي إذاً كان في حاجة إلى تغيير حال، و إلى زعامة رشيدة واعية مدركة لما ينبغي أن تحمله من رسالة، مخلصة تسعى إلى الهدف بروح و صبر و مثابرة، وقد هيّـأ الله للمسلمين جماعة هبوا لنصرة الإسلام، و مجاهدة العدو الغاصب. و ساعد العلماء و الفقهاء في الدعوة لأولئك الزعماء، و التمهيد لهم بين العامّة، و هكذا بدأت حركة ردّ الفعل في إظهـار آثارها، و كان من أبرزها غزوات **عماد الدين زنكي** للصليبيين التي كللت باستعادة مستعمرة الرها أولى المستعمرات الصليبية في شمال الشام، ثم توالت الانتصارات بعد ذلك على يدي خليفة زنكي نور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبي و خلفائه. [2]

و قد بدأ الصراع بين الموصل و الرها منذ بداية القرن السادس الهجري، حتى انتهى ذلك الصراع بظهور عماد الدين زنكي و استيلائه على الموصل ثم اندفاعه في قوّة نحو الغرب.

و بدأ ظهور زنكي على مسرح الحوادث في سنة ٥٢١ هـ حين تولى شحنكية بغـداد للسلطان محمود السلجوقي عقب قيامه بدور هام في البصـرة و واسط، ثم تولى الموصـل بعد وفـاة واليها، و جرّد جنده ليوسع إمارته و ليحمى حدودها، وقد غرب متّجهاً إلى حلب فامتلكها، ثم استولى على حماة. [3]

---

[1]- المصدر السابق، ص٢٧.

[2]- المصدر نفسه، ص ٢٨.

[3]- المصدر نفسه، ص ٢٩.

و كانت إمارة الرها الصليبية تسيطر على الخطوط الرئيسة بين العراق و شواطىء البحر المتوسط. كما كانت الحاجز الذي يحمى المستعمرات اللاتينية الأخرى في الشام من هجمات المسلمين من الشرق.

و توجّه إليها عماد الدين زنكي، وحاصرها أربعة أسابيع ثم انتزعها من جوسلين الثاني سنة ٥٣٩ هـ، فكانت أولى المستعمرات الصليبية تأسيساً و سقوطاً.

و كان سقوط الرها ضربة عنيفة للصليبيين، و نذيراً باضمحلال نفوذهم و تقلّص ظلهم، كما كان من ناحية أخرى حافزاً للمسلمين، ومشجّعاً لهم على كفاحهم أعدائهم و طردهم من أراضيهم.[١]

و لم يلبث عماد الدين بعد استيلائه على الرها كثيراً؛ فقد اغتاله غلمانه عند قلعة جَعْبَر[٢]، و بذلك قضى أول أبطال التجمع الاسلامي و أعقبه ابنه الثاني الأمير نور الدين محمود.

و كان لعماد الدين ولد آخر هو سيف الدين اقتسم مع أخيه مُلك أبيه، فاستولى على الجزء الشرقي، في حين احتفظ نورالدين بالجزء الغربي في الشام و جعل قاعدته حلب. و من حلب قاد حملاته المتتابعة ضد أعدائه، و معارك صارت هذه المدينة في عصره مركزاً هامّاً لمناضلة أعداء العرب و الإسلام.

و الحق إن نورالدين لعب دوراً ممتازاً في معارك ردّ الفعل الإسلامي، و كانت لشخصيته الجذابة آثارها الكبيرة في تجمّع المسلمين حوله، و استطاع أن يمثل رمز البطولة الإسلامية المنتظرة.[٣]

استطاع نورالدين أن يعبأ قوى المسلمين للجهاد ضد الصليبيين، و نجح في قيادته فخاض عدّة معارك ناجحة، وأمكنه أن يبسط سلطانه على جزء كبير من الشام، و أن يبث الرعب و الهلع في نفوس الصليبيين.

على أن مهمّة نورالدين لم تكن سهلة؛ فقد تعقدت الأمور عندما بدأت موجات الصليبيين تفد من جديد بعد

---

[١]- أُنظر: عمران،محمد سعيد(٢٠٠٠): **تاريخ الحروب الصليبية**، السويس: دار المعرفة الجامعية، ص ٨٥ و ما بعدها.

[٢]- قلعة جَعبَر: قلعة على الفرات مقابل صفين، التي كانت فيها الوقعة بين معاوية وأمير المؤمنين علي بن أبى طالب عليه السلام، و كانت تُعرف أولاً بدوسر، فتملّكها رجل من بني نمير يقال له جعبر بن مالك، فغلب عليها فسمّيت به.(الحموي(١٩٨٨): **معجم البلدان**،٣٩٠/٤)

[٣]- أُنظر : ابن خلّكان(١٩٩٨) : **وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان**، بيروت: دار الكتب العلمية، ٤/ ٤١٠.

أخذ الرها. وهي ما عُرفت بالحروب الصليبية الثانية بقيادة كونراد الثاني الألماني و لويس السابع الفرنسي، وقد جمع جيشهما فرسان الداوية و الاستبتارية الذين عرفوا بشدّة بلائهم.

ولكن نورالدين تمكن بعد سلسلة من المعارك و الغارات من انتزاع دمشق التي طمع فيها الصليبيون و لم يستحوذوا عليها، و كان ذلك دون قتل بمساعدة نجم الدين أيوب و أسد الدين شيركوه، كما أسر جوسلين الثاني، أمير الرها، و فتح أقساماً من إمارة أنطاكية و قبض على صاحبها بوهمند الثالث، وعلى خليفته ريموند الثالث صاحب طرابلس و أطلقهما بعد فدية كبيرة.

و لم يبق أمام نورالدين سوى مملكة بيت المقدس و صاحبها بلدوين الثالث، وقد خاض نور الدين عدة معارك ضدها، وكان أهمّها معارك مصر التي جهّز لها ثلاث حملات بقيادة أسدالدين شيركوه و ابن أخيه صلاح الدين، و انتهت بجلاء الصليبيين نهائياً عن مصر، و تمكُّن شيركوه ثم صلاح الدين، و بذلك دخلت مصر المعركة بكل قوّتها ضد الصليبيين و عندئذ بدأت المرحلة الحاسمة في تاريخ تلك الحروب، و كان صلاح الدين بطلها السياسي و الحربي الذي تمكَّن بشخصيته الفذة أن يجمع حوله العالم الإسلامي، وأن يحوّل الهزيمة و الضعف إلى انتصار و قوّة.[١]

دور طائفة الاسماعيلية في الحروب الصليبية:

ثمة طائفة لعبت دوراً خطيراً في تاريخ الشرق الأدنى في عصر الحروب الصليبية، وأثرت عن طريق مباشر أو غير مباشر في مجرى تلك الحروب وأحداثها، وهي طائفة الاسماعيلية الباطنية.

و الاسماعيلية فرقة من الشيعة يُدينون بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق[عليه السلام] الذي نجح أتباعه في إقامة الدولة الفاطمية في أخريات القرن الثالث الهجري، غير أنه حدث أن انشق اسماعيلية الشام بعد موت الخليفة المستنصر الفاطمي(ت٤٨٧هـ) على الدعوة القديمة، ونادوا بإمامة «نِزار» و بطلان إمامة ابنه الآخر المسمّى «المستعلي» الذي ظلّ أتباعه في مصر ينتمون إليه.[٢]

---

[١]- زغلول سلام(٢٠٠٨)، ٣١/١ و ما بعدها.

[٢]- أُنظر: القلقشندي(٢٠٠٣):**صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، بيروت: دارالفكر- دار الكتب العلمية، ٢٣٨/١٣ و ما بعدها.

و من أهمّ المبادىء التي أقام عليها الاسماعيلية مذهبهم، ايمانهم بأن للعقيدة ظاهراً و باطناً، و أن الشخص الذي يدرك كنه الباطن و يتبعه لا يستحقّ العقاب. وقد أدّى بهم هذا الرأي إلى تأويل أحكام الشريعة، فجعلوا لكل نوع من أنواع العبادة باطنا، ممّا جعل الناس يطلقون عليهم اسم «الباطنية».[١]

و قد عرف فرع الشام في كتب التاريخ باسم الاسماعيلية النزارية، و ممّا ساعد على نجاح الدعوة النزارية في بلاد الشام في أواخر القرن الخامس الهجري، أنها كانت مرتعاً خصيباً للصراع بين الفاطميين و السلاجقة و الصليبيين، الذين أفلحوا في تأسيس مملكة لاتينية لهم في الأراضي المقدسة على حساب هذه الفوضى الضاربة أطنابها في الشرق الإسلامي، كما مكّنت هذه الاضطرابات الاسماعيلية من الاستيلاء على عدد من القلاع الجبلية القوية المتناثرة في جبال لبنان و تكوين مجتمعات الاسماعيلية هناك، لا همّ لهم إلّا العمل على تثبيت أقدامها بكافّة الطرق و الوسائل.[٢]

ينقسم الدور الذي قام به الاسماعيلية في عصر الحروب الصليبية إلى قسمين: أوّلهما

مقاومة الصليبيين و قتل بعض مقاومة المذهب السنّي و العمل على الفتك بزعمائه. و ثانيهما زعمائهم. و لم يفرق الاسماعيلية خلال كل ذلك بين المسلمين السنيين و الصليبيين المسيحيين. و إنما اهتمّوا بتحقيق مصالحهم على حساب الفريقين جميعاً، وفي سبيل هذه المصلحة الخاصة لم يتحرج زعماؤهم من محالفة الصليبيين حيناً أو مهادنة السنيين أحياناً. و هكذا أدّى اتساع نشاط الباطنية في بلاد الشام بوجه خاص إلى إضافة عامل جديد قوي إلى عوامل التفكك التى تعرضت لها تلك البلاد في عصر الحروب الصليبية.[٣]

ذلك أنه حدث في الوقت الذي كان المسلمون في حالة الدفاع ضد الصليبيين، أن تعرضوا لطعنات قوية من الخلف من جانب الباطنية، ممّا أضعف المسلمين و أحدث ثغرة قوية في جبهتهم، في حين تماسك الصليبيون و حرص أمراؤهم على شدّ

[١]- عبد الفتاح عاشور (١٩٩١): **تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى**، بيروت: دار النهضة العربية، ص ٣٤٠.

[٢]- جوزيف نسيم يوسف(١٩٨١): **العدوان الصليبي على بلاد الشام**، بيروت: دار النهضة العربية، ص ٢٢٦ و ما بعدها.

[٣]- عبد الفتاح عاشور(١٩٩١)، ص٣٤٣ و ٣٤٤.

أزر بعضهم بعضاً. و حسبنا ما فعله الباطنية في حصن شيزر[1] سنة ٥٠٢ هـ إذ « ثار جماعة من الباطنية فيه على حين غفلة من أهله ... فملكوه و أخرجوا من كان فيه » و انتزعوه من أصحابه بني منقذ.[2]

يبدو أن الاسماعيلية كانت تغير على شيزر بين الفينة و الفينة، من ذلك أنّها احتلّها ليوم و ليلة ثم استرد القلعة أهلها، و كان ذلك في عيد الفصح سنة ٥٠٧ هـ .[3] و يقول أيضاً أسامة بن منقذ في كتابه « لباب الآداب »:

«كان بيننا و بين الاسماعيلية قتال في قلعة شيزر في سنة سبع و عشرين و خمسمائة، لعملةٍ عملوها علينا ، ملكوا بها حصن شيزر، و جماعتنا في ظاهر البلد ركاب » .[4]

****

هذه خلاصة الاوضاع السياسية و الحربية زمن الحروب الصليبية، فترةٌ شهدت بعينها شخصيات أدبية تاريخية مثلت حياتها الفروسية الإسلامية العربية، شخصيات شاركت في وقائع تلك الحروب و شهدت ما شنّها الصليبيون من الحروب، فبذلك استحقت حياتهم الدراسة و التمحيص.

من هذه الشخصيات **أسامة بن منقذ** الذي وُلد قُبيل الحروب الصليبية أي سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، وخاض مع قومه بني منقذ بمدينتهم شيزر هذه الحروب، و حاول كذلك أن يدوّن حوادثها في مؤلفات عدّة منها ديوان شعره و كتابه الاعتبار، الذي سجّل فيه معلومات كثيرة حول اختباراته الحربية و تجاربه و ذكرياته حول الحروب الصليبية. فإليك المبحث الاول الذي سنسلّط الضوء فيه على حياة أسامة الذاتية.

---

[1]- سنتحدّث عن شيزر بتفصيل في المبحث الاول.

[2]- ابن الأثير(١٩٦٦)، ٤٧٢/١٠.

[3]- أنظر ابن القلانسي(١٩٠٨): **ذيل تاريخ دمشق**، بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ص ١٩٠.

[4]- ابن منقذ، أسامة(١٩٣٥): **لباب الآداب**، القاهرة: مكتبة لويس سركيس، ص ١٩٠.

حيـاتـه الذاتيـة [1] :

قبل أن نتحدّث عن حياة أسامة بن منقذ، نتكلّم قليلاً حول «شيزر»؛ فإنّها مسقط رأس أسامة، و قاعدة أمارة بني منقذ، التي شهدت ملكهم طوال ثمانين عاماً.

شيـــــزر :

يشير ياقوت في كتابه « معجم البلدان » إلى موقع هذه القلعة و قدمها و يقول :

« قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرّة، بينها وبين حماة يوم، في وسطها نهر الأردن، عليه قنطرة في وسط المدينة، أوله من جبل لبنان، تُعدّ في كورة حمص و هي قديمة ».[2]

و لا شك أن ياقوت أصاب في جزء من خبره، و أخطأ في جزء آخر منه، خصوصاً حين ذكر أن نهر الأردن يمرّ بشيـزر، و أن أوله في لبنان . و الصواب أن نهر **العاصي** هو الذي أوله في لبنان و وجهته إلى سوريا .[3]

و أيضاً يشير ابن الأثيرإلى حصن شيزر، فيقول :

« هذا الحصن قريب من حماة، بينهما نصف نهار، و هو على جبلٍ عالٍ منيع لا يُسلك إليه إلّا من طريق واحدة، و كان آل منقذ الكنانيّين يتوارثونه ».[4]

و لهذه البلدة أهميّة تاريخية و جغرافية؛ لمركزها الحربي الحصين، و بين الولايات السوريّة، ممّا جعلها مطمح الطامعين من أمراء المسلمين و الصليبيين ، عبر الحروب الصليبية .

---

[1]- لمزيد من الاطلاع على حياته الذاتية راجع : تاريخ دمشق لابن عساكر ٩٠/٨، الاعتبار لأسامة بن منقذ، خريدة القصر للعماد الاصفهاني (قسم الشام) ٤٩٨/١، معجم الأدباء لياقوت ١٠٠/٢، الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢١٩/١١، وفيات الأعيان لابن خلّكان ٢٠٢/١، شذرات الذهب للذهبي ٤٦٧/٤، البداية و النهاية لابن كثير ٨٦٢/١٢، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٩٧/٦...

[2]- ذكرها امرؤ القيس في قوله :

تقطّع أسباب اللُّبانةِ و الهوى ... عشيّةَ جاوَزنا حماةَ و شَيزَرا

و قال عبيد الله بن قيس الرقيّات :

فوا حَزَنا إذ فارقونا و جَاوروا ... سوى قومهم أعلى حماةَ و شَيزَرا (الحموي(١٩٨٨)، ٣٨٣/٣)

[3]- قصي الحسين(٢٠٠٩) : **موسوعة الحضارة العربية (العصر المملوكي و العثماني)**، بيروت: دار و مكتبة الهلال- دار البحار، ص٣٥٧.

[4]- ابن الأثير(١٩٦٦) ، ٢١٩/١١.

لشيزر شهرة كبرى في الكتب التاريخية، و يلمع دائماً إلى جانبها اسم الأمراء من بني منقذ الكنانيين، كما سنتحدّث عن ذلك فيما يلي .

آل منقذ الأمراء :

أوّل من ملك قلعة شيزر، هو أبوالحسن علي بن مقلّد بن نصر بن منقذ الكناني المقلّب سديدالملك، صاحب قلعة شيزر؛ فالقلعة كانت بيد الروم فنازلها و استولى عليها سنة ٤٧٤هـ ، و لم تزل شيزر في يده و يد أولاده إلى أن جاءت الزلزلة سنة ٥٥٢هـ ، فهدّمتها و قتلت كلّ من فيها من بني منقذ و غيرهم . كان سديدالملك –كما يقول ابن خلكان– شجاعاً مقداماً قوي النفس كريماً، مدحه جماعة من الشعراء و له شعر جيّد، توفّي سنة ٤٧٥هـ .[١]

بعد سديدالملك، مَلَكَ شيزر ابنُه نصر بن علي بن المقلّد بن نصر بن منقذ، أبو المرهف الكناني، عزّالدولة، و استمرّ إلى أن توفّي بها سنة ٤٩١هـ .[٢] و كان شجاعاً كريماً، شاعراً أديباً .[٣]

استخلف أبو المرهف أخاه مرشد بن علي، أبا سلامة — و هو والد أسامة بن منقذ – ، فأبى أبو سلامة إمارة شيزر، فقال : « و اللهِ لا وليتُه و لأخرجنّ من الدنيا كما دخلتُها ». وكان عالماً بالقرآن و الأدب، فولّاها أخاه الأصغر سلطان بن علي، ثمّ توفّي سلطان و بقي بعده أولاده، فلمّا خربت القلعة من الزلزلة، لم ينجُ منهم أحد .[٤]

نسبُـه :

هو أبو المظفّر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلّد بن نصر بن منقذ الكناني، الكلبي، الشيزري، الملقّب مؤيّد الدولة مجد الدين .[٥] و يرتفع ياقوت بنسبه إلى يعرب بن قحطان .[٦]

أُسـرته :

[١]- أنظر : ابن خلكان(١٩٩٨)، ٣٥٨/٣ .

[٢]- ابن تغري بردي(١٩٩٢) : **النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة**، بيروت : دار الكتب العلمية، ١٦١/٥ .

[٣]- الزركلي، خير الدين(١٩٦٩) : الأعلام، بيروت، ٢٦/٨ .

[٤]- ابن الأثير(١٩٦٦) ، ٢١٩/١١ و ما بعدها .

[٥]- ابن خلكان(١٩٩٨) ، ٢٠٢/٤ .

[٦]- الحموي(١٩٩١) : **معجم الأدباء**، بيروت:دار الكتب العلمية، ١٠٢/٢.

ممّن عاصر أسامة و عاش في زمنه، العماد الاصفهاني الكاتب، يقول في كتابه « خريدة القصر » مثنياً على الأمراء من بني منقذ الكنانيين :

« كانوا من أهل بيت المجد و الحسب، و الفضل و الأدب، و الحماسة و السّماحة، و الحصافة و الفصاحة، و الفروسيّة و الفراسة، و الإمارة و الرئاسة، اجتمعت فيهم أسباب السيادة، و لاحت من أساريرهم و سِيَرهم أمارات السعادة، يخلّفون المجد أوّلاً لآخِر، و يرثون الفضلَ كابراً عن كابر ».[1]

مولـده و نشـأتـه :

وُلد أسامة بن منقذ بشيزر في اليوم السابع و العشرين من شهر جمادى الثانية سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، أي قبل ابتداء الحروب الصليبية ببضع سنين .[2]

كان والده من أهل الصلاح، يقضي وقته بين تلاوة القرآن و الصّيد في النهار، و نسخ كتاب الله في الليل، و هو صائم الدهر .[3]

أمّا والدته فكانت مشهورة بالشجاعة و النّخوة و الإقدام، كما يروي عنها أسامة حادثةً دخلت خلالها القتال بنخوةٍ يعتبرها أسامة أشدّ من نخوات الرجال .[4]

نشأ أسامة على الفروسيّة، و تربّى على مبادئ الشجاعة و الشهامة، و اقتحم الأخطار، وهو صغير، و كانت الأحداث من حوله تشدّه إلى هذا اللون من حياة الفتوّة و الخشونة، حيث يقول في إحدى مذكراته :

[1]- الاصفهاني، العماد(١٩٥٥): **خريدة القصر و جريدة العصر، قسم الشام**، دمشق: المطبعة الهاشمية، ٤٩٧/١ .

[2]- المقريزي(١٩٣٤): **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك**، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٢٥/١ .

[3]- ابن منقذ، أسامة(لا تا): **الاعتبار**، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ص ١٩٩ .

[4]- المصدر نفسه، ١٢٤ .

« فكم لقيتُ من الأهوال، وتقحّمتُ المخاوف و الأخطار، و لاقيتُ الفرسان، و قتلتُ الأسود، و ضربتُ بالسيوف، و طُعنتُ بالرماح، و جُرحتُ بالسهام و الجروخ ».[1]

هذه هي حياة أسامة المملوءة بالأهوال، و المخاوف و الأخطار؛ فالروم كانوا يتهدّدون أطراف بلاده، والصليبيون كانوا يُغيرون دائماً على بيت المقدس و بلاد الشام، و من دون هذين كانت الاسماعيلية تُغير على شيزر- كما ذكرنا في التمهيد - ، و كان ما حول شيزر أماكن يقصدها أسامة للصيد، مليئةً بالوحوش الضارية، و الحيوانات المفترسة، ممّا جعل أسامة لا يخرج للصيد إلّا و هو مسلّح .[2]

كان والد أسامة - كما أشرنا - مشغوفاً بالصيد و نسخ القرآن أكثر من السياسة، فتنازل عن السيادة على شيزر لأخيه الأصغر أبي العساكر سلطان بن علي .[3]

مع أن أسامة كان ثاني إخوته الأربع، فإنَّ عمَّه أبا العساكر - الذي لم يكن له ولد ذكر في بداية الأمر - استخصّ أسامة بعطفه و رعايته، و درّبه على الفنون الحربية، وكان يمتحن بالسؤال حضور ذهنه في ساعة القتال .[4]

اتّخذ أبو العساكر أسامة ابناً له و كان يرى فيه الأمير المستقبل لشيزر و وارث الملك من بعده . اشترك أسامة في المعارك التي دارت بين أسرته و بين الصليبيين دفاعاً عن مدينتهم شيزر . و عاش أسامة في تلك المدينة بين حبّ والده و عطف عمّه، غير أن هذا لم يلبث بعد أن رُزق أولاداً في آخر أمره . فحسد أخاه على ذلك، و خاف أولاد أخيه على أولاده، و سعى بينهم المفسدون، فغيّروا كلاً منهما على أخيه .[5]

فلمّا مات والد أسامة سنة ٥٣١هـ ، قلّب أخوه لأولاده ظهر المجنّ، و تمادت الأيام بينهم إلى أن قوي عليهم، فأخرجهم من شيزر .[6]

---

[1]- المصدر السابق ، ١٦٣ . الجروخ : من أدوات الحرب ترمى عنها السهام و الحجارة، و الكلمة معربة.

[2]- المصدر نفسه، ٢٠٠ .

[3]- أنظر : أباشامة (لا تا): **الروضتين في أخبار الدولتين (النورية و الصلاحية)**، بيروت: دار الجيل، ١١١/١ و ١١٢ .

[4]- ابن منقذ (لا تا)،ص ١٠٠ .

[5]- أنظر : ابن الأثير(١٩٦٦)، ٢١٩/١١ .

[6]- أبوشامة(لا تا)، ١١٢/١ .

أســـامة في دمشـــــق :

لمّا طُرد أسامة من شيزر، خرج مع إخوته إلى دمشق سنة ٥٣٢هـ ، و في هذه المدينة اتّصل بصديقه و ظهيره « معين الدين أنُر »[١]صاحب دمشق .

على ما يبدو اعتمد هذا الحاكم على أسامة في تصريف الشؤون السياسية ـ مع أن التاريخ شحيح في ذكر معلومات دقيقة حول هذه الشؤون ـ ، و نجح أسامة في هذه المهمّة نجاحاً رفع مكانته في دمشق، و جعله يعيش مكرّماً أكثر من سبع سنوات، غير أن أمثال أسامة لا يعدمون حسّاداً يكيدون لهم، فسرعان ما سعى به الواشون إلى معين الدين الذي صدقهم، فانحرف قلبه عن أسامة، فنبت به دمشق « كما تنبو الدار بالكريم » كما يقول العماد الاصفهاني .[٢] يدلّنا على ذلك قول أسامة :

بَلّغْ أميري معينَ الدينِ مَألُكةً ... مِن نـازحِ الـدَّارِ، لكنْ وُدُّهُ أَمَـمُ [٣]

هَلْ في القضيَّةِ يا مَنْ فَضْلُ دَولتِهِ ... وَ عَـدْلُ سيـرته بيـنَ الـوَرَى عَلَـمُ

تضْييعُ واجبِ حقّي بعدَما شَهِدَتْ ... بِهِ النَّصيحةُ و الإخلاصُ و الخِدَمُ

و مَا ظَنَنْتُكَ تَنْسَى حَقَّ مَعرفتي ... « إنَّ المَعارفَ في أهلِ النُّهَى ذِمَمُ »

لكنْ ثِقاتُكَ مَازالوا بِغَشِّهِمُ ... « حتَّى اسْتوتْ عنْدكَ الأَنوَارُ و الظُّلَمُ »

و اللهِ مَا نَصَحُوا، لِمَا اسْتَشَرْتَهُمُ ... و كلُّهُمُ ذو هَوىً في الرَّأْيِ مُتَّهَـمُ

كمْ حَرَّفُوا مِنْ مَقالٍ في سفارتهم ... و كـمْ سَعَوْا بفَسـادٍ، ضَلَّ سَعْيُهُمُ [٤]

[١]- هو معين الدين الطُّغتِكيني، ملك الأمراء بدمشق ، أميرٌ سائس، رئيس شجاع، مَهيبٌ، فحل الرأي، و كان يحبّ العلماء و الصلحاء، و مواقف مشهودة، و غزوٌ كثير، كان حَسَن الديانة، له المدرسة المعينية، و كانت الفرنج تخافه. توفّي سنة ٥٤٤هـ . (الذهبي(١٩٩٧): **سِيَر أعلام النبلاء**، بيروت: دار الفكر، ١٥/٤٧)

[٢]- الاصفهاني(١٩٥٥)، ١/٤٩٨.

[٣]- المألكة : الرسالة. الأمم : القرب.

[٤]- ابن منقذ(١٩٥٣): **ديوان الشعر**، القاهرة: المطبعة الأميرية، ص ١٤٦ و ١٤٧.

في هذه الأبيات، يعتبر أسامة حقوقَه ضائعة من جانب معين الدين أنر و نراه كيف يدافع عن نفسه و يحاول أن يذكر لمعين الدين خدماته الصادقة الخالصة المنسيّة من جانب هذا الحاكم . لايمكن لأسامة أن يقبل هذا النسيان؛ لأنّه يعرف الحاكم جيّداً و يعتقد بأن الحاكم شأنه أجلّ من أن تنسى حقّ معرفته. لكن يبيّن أنّ ثقاة الحاكم ليسوا من أهل النُّصحِ و الصلاح، بل يقومون دائماً بالغشّ و السعاية و الوشاية، و يحرّفون الأقوال عنده، ويسعون في فساد الجوّ الموجود في البلاط، و في النهاية يدعو على هؤلاء الوشاة ليضلّ سعيهم. هذه هي دلائل أسامة لتغيير وجهة نظر الحاكم با النسبة إليه. و هذا التغيير في أفكار معين الدين أنر أدّى إلى حُكمِهِ بإخراج أسامة من دمشق إلى مصر سنة ٥٣٩هـ ، كما يؤيّد ذلك ابنُ القلانسي في تاريخه.[١]

أسـامة في مصـر:

ترك أسامة دمشق، و سافر إلى القاهرة، فوصل إليها في الثاني من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩هـ، في عهد الخليفة الفاطمي، الحافظ لدين الله.[٢]

و كانت الدولة الفاطمية آنذاك، من عاداتها الإحسان في حقّ من يلجأ إلى ظلّها، فلقي أسامة من تلك الدولة كثير الإحسان و جزيل الإنعام.[٣] فأكرمه الخليفة أيّما إكرام[٤]، و أقطعه إقطاعاً عاش به في رغد من الحياة و خفض عيش، حيث قال :

---

[١]- أُنظر : ابن القلانسي(١٩٠٨)، ص ٢٧٨.

[٢]- هو أبو الميمون عبد المجيد، الملقّب الحافظ . كان مولده بعسقلان في المحرّم سنة ٤٦٧هـ و كان قد بويع بالعهد يوم قتل ابن عمّه الآمر. توفّي سنة ٥٤٣هـ.(ابن خلكان(١٩٩٨) ،٣/٢٠٤)

[٣]- أُنظر: ابن القلانسي(١٩٠٨)، ص ٢٧٨.

[٤]- ربّما يعود هذا الإكرام إلى شاعريَّة أسامة؛ فقد كان الخلفاء الفاطميون يحبّون الأدب، و يُجيزون عليه، ويجلسون للشعراء مجالس، ينصتون فيها إلى شعرهم، و ينقدون إنتاجهم، ويكافئونهم على مقدار جودتهم.(أُنظر: بدوي،أحمد أحمد(١٩٧٩): **الحياة الأدبية في عصرالحروب الصليبية بمصر و الشام**، القاهرة: دار نهضة مصر، ص ٢٣ و مابعدها)

« فأقرّني الحافظ لدين الله ساعة وصولي، فخلع عليَّ بين يديه، و دفع لي تخت ثياب و مائة دينار، و خوّلني دخول الحمّام، و أنزلني في دارٍ من دور الأفضل أمير الجيوش، في غاية الحسن، و فيها بُسطها و فرشها و مرتبة كبيرة، و آلتها من النحاس، كل ذلك لايُستعاد منه شيء، و أقمتُ بها مدّةً إقامةً في إكرام و احترام و إنعام متواصل».[١]

لم يشأ أسامة في أول الأمر أن يزجّ بنفسه في الأحداث السياسية المصرية، حتى إذا ولّى الظافر[٢]، ألقى بنفسه في خضمّ هذه الأحداث، حتّى ليروي المؤرّخون أنه اشترك في المؤامرات التي انتهت بقتل الوزير العادل بن السلّار و الخليفة الظافر. يقول ابن الأثير في أحداث سنة ٥٤٨هـ :

« في هذه السنة، في المحرّم، قُتل العادل بن السلّار، وزير الظافر بالله، قَتَله ربيبه عبّاس بن أبي الفتوح بن يحيى الصّنهاجيّ، و أشار عليه بذلك الأمير أسامة بن منقذ... »[٣]

ساءت الأحداث السياسية في مصر، و كان يحسب أسامة أنه سيجد فيها راحة باله بعد ما شهده في بلاد الشام، لكنه رأى الصراع في القصر الفاطمي على أشدّه بين الخلفاء و الوزراء، و حتّى بين الوزراء أنفسهم، و ضاقت الدنيا في وجهه بعد أن شهد المآسي؛ فالخليفة قتله عباس الصنهاجيّ، و يقوم طلائع بن رزّيك[٤] فينتقم من القاتل، و هكذا يستمر أزمة هذا الصراع السياسي و يحسّ أسامة من خلاله باليأس فينشد :

هَبْ أنَّ مِصرَ جِنانُ الخُلدِ ما اشتهتِ النُّـ ـفوسُ فيها من اللَّذّاتِ مَوجودُ

ماذا انْتفاعي إذا كانتْ زَخَارِفُها موجودةً، و حبيبُ النَّفسِ مفقودُ

---

[١]- ابن منقذ(لا تا)، ص ٦.

[٢]- هو الظافر بالله أبو منصور إسماعيل بن الحافظ، بويع بالخلافة بعد موت أبيه الحافظ سنة ٥٤٤هـ.(ابن خلكان(١٩٩٨) ، ٢٣٧/١)

[٣]- ابن الأثير(١٩٦٦)، ١٨٤/١١.

[٤]- هو أبوالغارات طلائع بن رزّيك الملقّب الملك الصالح، وزير مصر. كان والياً بمنية بني خصيب من أعمال صعيد مصر، فلمّا قُتل الظافر توجّه الصالح إلى القاهرة، و تولّى الوزارة في أيّام الفائز و استقلّ با الأمور، و كانت ولايته سنة ٥٤٩هـ، و كان فاضلاً، سمحاً في العطاء، سهلاً في اللقاء، محبّاً لأهل الفضائل، له ديوان شعر. توفّي سنة ٥٥٦هـ. (ابن خلكان(١٩٩٨) ، ٢٣٢/٢و ما بعدها)

و مـا الحيـاةُ لِمَنْ بـانتْ أحبَّتُـه		رضًا، ولا هـو في الأحياءِ معدودُ [1]

يأسى الشاعر على حاله و هو بعيد عن بلده، و يتذكر أحبّته، و يتشوّق إلى أوطانه و أوطاره :

**يَا مصرُ، ما دُرْتِ في وَهْمي و لا خَلَدي		و لا أجَـالَتْـكِ خَـلْواتي بأفكـاري**

**مـا أنْتِ أوّلُ أرضٍ مـسَّ تُـربـتهـا		جسمي، ولا فيكِ أوطاني و أوطاري**

**لكنْ إذَا حُمَّتِ الأَقْدارُ كان لها		قُوىً تُؤلِّـفُ بَيْنَ المـَاءِ و النَّـارِ** [2]

حياة أسامة بمصر، و هذه الأزمات السياسية هناك، زادته من التجارب، إضافةً إلى تقلُّبات الزمان و عبر الأيام. و ربّما جميع هذه العوامل أثّرت في نُضج شخصية أسامة؛ فهو يعترف بذلك في بائيةٍ، حيث يقول :

**خَمْسون منْ عُمري مَضَتْ لمْ أَتَّعظْ		فيها، كأنّي كنْتُ عنْها غائبًا**

**لـمْ أنتَفـعْ بتجـاربي فيـها عـلى		أنّي لَقيتُ من الزَّمان عَجائبًا**

**و أتَتْ عليَّ بمصرَ عَشرٌ بَعدَها		كانتْ عظاةً كلُّها و تجاربًا**

**شاهَـدْتُ مِن لَعِـبِ الزَّمانِ بأهلِهِ		وتقلُّبِ الدُّنيا الرقُوبِ[3] عجائبًا** [4]

تحدث أسامة عما شهده في مصر من الحوادث المفجعة التي حدثت في البلاط الفاطمي في كتابه « الاعتبـار»، و يظهر أن جفوة حدثت بينه و بين القصر؛ إذ كان مطّلعاً على كلّ ما جرى من اغتيـال الوزير العادل بن السلّار بيد حفيـد زوجته نصر بن عباس، و اغتيـال الخليفة سرّاً بعد ذلك، فأزمع أمره على الفرار من القاهرة، و هرب منها، و لم يكد يبلغ دمشق إلّا بشق النفس بعد أن تعرّض له الصليبيون مراراً.[5]

خلف أسامة وراءه صداقات متينة، كانت تربطه بالعظماء من رجال الفكر و السياسة هناك، و ستغدو في المستقبل صلة وصل بين حكام مصر و الشام، و كانت بحق مظهراً من مظاهر الوحدة العربية المرتقبة لتطهير الأرض المقدسة.[6]

---

[1]- ابن منقذ(١٩٥٣)، ص ٦٥ .

[2]- المصدر نفسه، ص٧٥.

[3]- الرَّقوب: التي لايعيش لها ولد.

[4]- المصدر نفسه ، ٢٦٥.

[5]- أنظر: ابن منقذ (لا تا)، ص ١٨.

[6]- عمر موسى باشا (١٩٨٩): **الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين و الأيوبيين و المماليك**، بيروت: دارالفكر المعاصر، ص ٢٧٥.

عـودتـه إلـى دمشــق :

وصل أسامة إلى دمشق سنة ٥٤٩هـ، و أرادت أسرته الالتحاق به، ولكنّ الفرنج هجموا على السفينة التي كانت تحملهم، و نهبوا ما معهم من المتاع، و ساموهم سوء العذاب، حتى إذا وصلوا إلى دمشق، كانوا قد فقدوا كلَّ ما حملوه معهم من مصر.[١]

و كان لتلك الحادثة أثر أليم في نفس أسامة؛ حيث يقول في كتابه الاعتبار:

« و قد كان في المركب حلى أودعه النساء، و كسوات و جوهر و سيوف و سلاح و ذهب و فضّة، بنحو من ثلاثين ألف دينار، فأَخذ الجميع، و نفذ لهم مائة دينار، و قال ـ يعني أحد ملوك الفرنج ـ :« توصلوا بهذه إلى بلادكم »

و كانوا رجالاً و نساءً في خمسين نسمة ... فهوّن عليّ سلامة أولادي و أولاد أخي، و حرمنا ذهاب ما ذهب من المال، إلّا ما ذهب لي من الكتب؛ فإنّها كانت أربعة آلاف مجلّد من الكتب الفاخرة، فإنّ ذهابها حزازة في قلبي ما عشت».[٢]

اتّصل أسامة في دمشق بحاكمها نور الدين محمود[٣]، أكبر أبطال الحروب الصليبية في عصره، و كثيراً ما أرسل إليه الوزير المصري طلائع، قصائدَ يحثه بها أن يتوسّط لدى نور الدين محمود، حتى تجتمع كلمة سوريا و مصر على جهاد العدوّ المشترك.[٤]

و أيضاً للملك الصالح طلائع بن رزيك رسائل شعرية، تواردت على أسامة بعد رحيله، يبرئ فيها أسامةَ من دم الخليفة الظافر، و يراه نقي الصفحة، طاهر اليدين؛ إذ يقول :

و حاشـاكمُ ما خُنتُم العهـدَ مثلَهُ　　　و لا لكمُ فيـما جـرى منه من ذَنبِ

و مِن مِثلِ ما قد نالَكم مِن دُنُوّهِ　　　يُحاذَرُ أن تَدنو الصِّحاحُ من الجربِ[١]

---

[١]- أُنظر: أبو شامة(لا تا)،١/٩٩.

[٢]- ابن منقذ(لا تا)، ص ٣٥.

[٣]- هو أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر، الملقّب الملك العادل نور الدين. كان ملكاً عادلاً زاهداً عابداً ورعاً، متمسكاً بالشريعة، مائلاً إلى أهل الخير، له فتوحات كثيرة، بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار، و له محاسن كثيرة. توفّي سنة ٥٦٩هـ بقلعة دمشق.(ابن خلكان(١٩٩٨)، ٥/١٨٤ و ما بعدها)

[٤]- أُنظر: ابن منقذ(١٩٥٣)،ص ٢١٣ و ما بعدها.

بقي أسامة في دمشق زهاء عشر سنين، لم تصفُ كلّها من الهموم و الشدائد؛ فقد دمّر الزلزال شيزر سنة ٥٥٢هـ، و قُتل من كان فيها من بني منقذ. يقول ابن الأثير:

« في هذه السنة، في رجب، كان بالشام زلازل كثيرة قويّة خرّبت كثيراً من البلاد، و هلك فيها ما لايُحصى كثرةً، فخرب منها بالمرّة حَماة و شيزر و كفَرطاب و المعرّة و أفامية و حِمص و حصن الأكراد و عَرقَة و اللاذقية، و طرابلس و أنطاكية ».[٢]

و في موضع آخر يذكر قلعة شيزر، و هلاك بني منقذ بها بسبب الزلزال، كما يشرح سبب هذا الهلاك الجماعي:

« و سبب هلاكهم أجمعين أنّ صاحبها منهم كان قد ختن ولداً له، و عمل دعوةً للنّاس، و أحضر جميع بني منقذ عنده في داره، و كان له فرس يحبّه، و يكاد لا يفارقه، و إذا كان في مجلس أقيم الفرس على بابه، و كان المهر في ذلك اليوم على باب الدار. فجاءت الزلزلة، فقام الناس ليخرجوا من الدار، فلمّا وصلوا محفلين إلى الباب ليخرجوا من الدار، رمح الفرس رجلاً كان أوّلهم فقتله، و امتنع الناس من الخروج، فسقطت الدار عليهم كلّهم، و خربت القلعة، و سقط سورها و كل بناء فيها، و لم ينجُ منها إلّا الشريد ».[٣]

و كان لهذا الحادث المؤلم صدى قويّ في شعره، و كان من إثره أن جمع أسامة كتابه « المنازل و الديار » ــ الذي سيأتي ذكره في قسم مؤلفاته ــ يخلـد به هـذه المأساة .[٤]

أســامة في شيخوختــه :

يبدو أن أسامة بعد هذه الحوادث لم يلبث بدمشق طويلاً؛ فقد رحل إلى « حصن كيفا »[٥] و معه أسرته، حيث استقبل هناك حياة هادئة وادعة، أتاحت له العكوف على البحث و الدرس و التأليف، ولكن هذه العزلة التي ارتضاها أسامة قطعها عودة صلاح الدين الأيوبي إلى دمشق، و قد رأى فيه أسامة البطل المنقذ للبلاد، فمضى إليه، و هو يومئذ شيخ قد جاوز الثمانين. و استقبله صلاح الدين استقبالاً حسناً؛ فقد كانت تربطه به صلات وثيقة، عندما كانا معاً في بلاط نور

---

[١]- المصدر نفسه، ص ١١٣.

[٢]- ابن الأثير(١٩٦٦)، ٢١٨/١١.

[٣]- المصدر نفسه،ص ٢٢١.

[٤]- مقدّمة المنازل و الديار بقلم مصطفى حجازي، ٤٨.

[٥]- هي بلدة و قلعة عظيمة مشرفة على دجلة، بين آمد و جزيرة ابن عمر من ديار بكر. (الحموي(١٩٨٨)، ٢٦٥/٢)

الدين محمود . فأعطاه صلاح الدين داراً بدمشق، و أكرم مقامه، و أجرى عليه نفقة، فطاب له العيش، و نعم في شيخوخته بشيءٍ من الرفاهية. كان صلاح الدين يجالسه و يؤانسه و يذاكره في الأدب، و كان يستشيره فيما يلمّ به، و إذا مضى إلى الغزو كاتبه، و أخبره بوقائعه، و كان معجباً بشعر أسامة، مشغوفاً بقراءة ديوانه، وتأمّل خواطره، و استحسان روائع قصائده، وكان ولده « مرهَف » جليس صلاح الدين و نديمه و أنيسه .[1]

على ما يبدو، لم تدم تلك النعمة و الرفاهية طويلاً؛ فقد حوّل صلاح الدين عنه وجهه، و وقعت بينهما جفوة، و يرجح فيليب حتّي في مقدّمته لكتاب الاعتبار أنّ هذه الجفوة كانت بسبب ميل أسامة للتشيّع .[2] فلزم أسامة بيته و في نفسه ما فيها من أسى و حسرة ...، و لم يلبث بعد ذلك أن أدركه ما يدرك المعمّرين حين يسلمهم الكبر إلى الضعف، فيملّون العيش، و يسأمون طول البقاء، فيكثرون الشكوى، و في ذلك يقول أسامة :

« و لم أدرِ أنّ داء الكبر عام، يعدي كلَّ من أغفله الحمام . فلمّا توقّلتُ[3] ذروةَ التسعين، و أبلاني مرُّ الأيام و السنين، صرتُ

كجواد العلاف، لا الجواد المتلاف، و لصقتُ من الضعف بالأرض، و دخل من الكبر بعضي في بعض، حتّى أنكرتُ نفسي

و تحسّرتُ على أمسي » .[4]

حيـــاتـــه الحـــربيـــــة :

كان أسامة بن منقذ فارساً بطلاً، كما يسمّيه الذهبي أحد أبطال الإسلام [5] ، و كان من الشجاعة في الغاية [6]؛ فقد باشر القتال، و هو حدث يافع كما قاتل الأسود و الوحوش حتّى حسده عمّه، و كان ذلك من أعظم الأسباب في إخراجه من

---

[1]- الاصفهاني(١٩٥٥)، ٤٩٩/١.

[2]- راجع مقدّمة الاعتبار، و قد أيّد ابن العماد الحنبلي مسألة تشيّع أسامة، و أيضاً الذهبي يعتبر أسامة من أمراء مصر الشيعة. (راجع: الحنبلي(١٩٩٨): **شذرات الذهب**، بيروت: دار الكتب العلمية، ٤٦٧/٤- الذهبي (١٩٩٧):**سير أعلام النبلاء، ٣٦٩/١٥**)

[3]- التوقّـل : الإسراع في الصعود .

[4]- ابن منقذ(لا تا)، ص ١٦١.

[5]- الذهـبي (١٩٨٥) : **دول الإســلام**، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ص ٣١٠.

[6]- ابن الأثير (١٩٦٦) ، ٢٨٥/١١.

شيزر[1]؛ فإنّ جدّته لأبيه حذّرته مرّة من عمّه، حين رأت حفيدها داخلاً البلدة و بيده رأس أسد ضخم، فنصحته بأنّ مثل هذه الأعمال يزداد قلب عمّك منك وحشة و نفوراً .[2]

و هذه الشجاعة كانت ترافق أسامة إلى أن كبر سنُّه؛ فقد ساهم في الوقائع الحربية و خاض في الحروب و المصافّات إلى أن تجاوز الثمانين، و هو يعترف بذلك و يقول :

ألـومُ الرَّدَى كـمْ خُـضْـتُه متعـرِّضـاً	**له و هو عـنّي مُعـرِضٌ متجنِّبُ**
و كمْ أَخذَتْ منّي السيوفُ مآخِذَ الْ	**حِمامِ ولكـنَّ القـضـاءَ مُغَـيَّـبُ**
إلى أنْ تجاوزْتُ الثمانيـنَ و انقَضَتْ	**بُلَهْنِيَةُ العيشِ[3] الذي فيه يُرغَبُ**
فَمكروهُ مَا تَخْشَى النُّفوسُ من الرَّدى	**أَلَذُّ و أحْلَى مِنْ حياتي و أَطْيَبُ [4]**

أورد أسامة في كتابه « الاعتبار »، عجائبَ ما باشـره و حضره وشهـده من الحـروب و الوقائع، إليك خلاصة هـذه الحروب :

كانت أوّل حملة قادها أسامة سنة ٥١٣هـ، حين سيره والده إلى أفامية [5] لقتال الفرنج المخيَّمين بها، و كان النصر حليفه، و لم يكن جهاده الفرنجَ قاصراً على قتالهم في حماة و شيزر[6] و أفامية، و غيرها من مدن سورية الشمالية، بل حاربهم

---

[1]- أبوشامة(لا تا)، ١١٢/١.

[2]- ابن منقذ(لا تا)، ص ١٢٦.

[3]- بُلَهْنِيَـةُ العيشِ : سَعَـةُ العيش.

[4]- لباب الآداب، ٢٢٦.

[5]- اقرأ قصّة هـذا القتال في « الاعتبـار »، ص٤٠ و ما بعـدها. و أفاميـة : مدينـة حصينـة من سواحـل الشام، و كورة من كوَر حمص. (الحموي (١٩٨٨)، ٢٢٧/١)

[6]- يذكر أسامة حملات الصليبيين على شيزر في مواضع عديدة من كتابه : أُنظر : ابن منقذ(لا تا) : صص ٢، ١١٣، ١٢١، ١٢٩، ١٤٧...

في فلسطين، فنازلهم في عَسقَلان [1] أربعة أشهر، و قاتلهم في بيت جبريل [2]، و في يُبنَى [3] ،كما شهد القتال أيضاً في ديار بكر و الموصل و غيرها [4]، و يحدثنا صاحب الروضتين عمّا أبداه أسامة من ضروب البسالة في حصار قلعة حارم[5] سنة ٥٥٧هـ، و هو على عتبة السبعين.[6]

و قد أفادت أسامة تجاربُه الحربية الكثيرة إيماناً عميقاً بأنّ الموت لايقدمه ركوب الخطر، ولاتؤخّره شدّة الحذر[7]، كما عوّدته الصبر و الرضا بالقدر، و صار يستقبل الأفراح كما يودّع الأحزان، و يواجه النصر و الظفر بالروح العالية التي يجابه بها الهزيمة و الفشل؛ لأنّه يؤمن أنّ كل ذلك بقدر من الله .[8]

بعد أن كبُر أسامة و تقدّمت به السنّ، كان يذكر وقائعه، و يتمنّى لو أن الموت كان قد وافاه في إحداها، فنال شرف الشهادة، و في ذلك يقول ـــ بعد أن حكى بعض ما لقي من الأهوال ـــ :

« فهذه نكبات تزعزع الجبال، و تفني الأموال، و الله سبحانه يعوّض برحمته، و يختم بلطفه و مغفرته، و تلك وقعات كبار شهدتُها، و نكبات نكبتُها، سلمت فيها النفس لتوقيت الآجال، و أجحفت بهلاك المال ».[9]

---

[1]- عَسقَلان : هي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر، بين غزّة و بيت جبرين، و يقال لها عروس الشام.(الحموي (١٩٨٨)، ١٢٢/٤) و قد استولى عليها الصليبيون سنة ٥٤٨هـ بعد قتال شديد. (أبوشامة(لا تا):٨٩/١، ابن منقذ(لا تا):ص ١٠ و ١٥)

[2]- في معجم البلدان بيت جِبرين : بليدة بين بيت المقدس و غزّة، و بينها و بين عسقلان وادٍ يزعمون أنّه وادي النّملة. (الحموي (١٩٨٨)،٥١٩/١) ذكرها أسامة في الاعتبار، ص١٦ .

[3]- يُبنى : بليدة قرب الرملة.(الحموي (١٩٨٨)، ٤٢٨/٥) يذكر أسامة هجومهم على هذه المدينة ص ١٧ من الاعتبار .

[4]- أُنظر : ابن منقذ(لا تا)، ص ١٠ و مابعدها.

[5]- حارم : حصنٌ حصين و كورة جليلة تجاه أنطاكية، و هي الآن من أعمال حلب، فيها أشجار كثيرة و مياه، و هي لذلك وبئة، و هي فاعل من الحرمان أو من الحريم، كأنّها لحصانتها يحرمها العدوّ و تكون حرماً لمن فيها. (الحموي (١٩٨٨)، ٢٠٥/٢)

[6]- أبوشامة(لا تا) ، ١/ ١٢٧.

[7]- أُنظر : ابن منقذ(لا تا)،ص ١٦٣.

[8]- أُنظر : ابن منقذ(لا تا)،ص ١٤٧.

[9]- المصدر نفسه، ص ٣٥.